



ماكس فيبر



كيف

تصف السياسة؟

بقلم رشاد عبد القادر · ١٥ تشرين الثاني ٢٠٢٥ · قراءة في ٤ دقائق

وقد صرنا نعرف الآن هذا المقطع، لا سيّما من خلال عبارته الافتتاحية القوية:

ليس من السهل العثور في الفكر السياسي الحديث على مقطع بلغ من القوة والبساطة والعمق ما بلغه نصّ ماكس فيبر في محاضرته الشهيرة «السياسة بوصفها حرفة» التي ألقاها في ميونيخ عام 1919، في لحظة ألمانية مفصلية أعقبت الحرب العالمية الأولى، وسقوط الإمبراطورية، واضطراب الحياة السياسية والفكرية، وترنح ألمانيا بين اليأس والأمل، بين الهزيمة والبحث عن بداية جديدة. في مثل هذا السياق الذي استمدت منه كلماته قوة خاصة، قدّم فيبر خلاصة رؤيته لـ«حرفة» السياسة، مصوغاً معايير أخلاقية ونفسية صارمة لما يجب أن يكون عليه السياسي.

السياسة مثلها مثل ثقب ألواح خشب صلبة

بقوّة وبطء؛ بشغفٍ ورؤية. وليس ثقة شكّ

في أن تجارب التاريخ كلها تشهد بأن الإنسان

ما كان ليبلغ المُمكن، لو لم يسع، المرّة تلو

الأخرى، إلى المستحيل. غير أنّ الإقدام على

ذلك، يقتضي أن يكون المرء قائداً، بل وبطلاً

أيضاً بالمعنى الأكثر رصانة للكلمة. حتّى

الذين ليسوا قادة، ولا أبطالاً، لا بُدّ لهم

التحلّي برباطة الجأش التي تمكّنهم من

تحمل انهيار كل الآمال. هذا، والآن تحديداً،

أمرٌ لا غنى عنه؛ وإلا فلن يحققوا ما هو

مُمكنٌ اليوم. ولا يصلح للسياسة إلا مَنْ كان

واثقاً أنّه لن ينكسر حتى إذا تبدّى له أن الدنيا

أسخف أو أحقر من أن تستحق ما يريد

تقديمه لها؛ وحده الذي يستطيع، إزاء كل

ذلك، أن يقول: «وإنّ يكن!» هو صاحب

«حرفة» في السياسة.

- هذا التوازن يعكس رؤية
فيبر للسياسة كفن إدارة
التناقضات، ويمنح النص
عمقاً فلسفياً
- اللحظة الدرامية يربط الماضي بالحاضر
البناء الدرامي والتّقال من العام إلى الخاص، من
الماضي إلى الحاضر
- أقوى لحظات النص

التوازن
بين
تناقضات
يخلق
توتراً
دلاليّاًيخلق
طبقات
متتالية

nicht immer wieder nach dem Unmöglichen gegriffen hätte. Aber um das zu tun, muss er ein Führer sein – und nicht nur das, sondern in einem sehr nüchternen Sinn ein Held. Und auch diejenigen, die keine Führer sind und keine Helden, müssen sich mit jener Seelenstärke wappnen, die das Zerschneiden aller Hoffnungen zu ertragen vermag. Das ist, gerade jetzt, notwendig, sonst werden sie nicht einmal das heute Mögliche erreichen. Nur wer sicher ist, daß er daran nicht zerbricht, wenn die Welt, von seinem Standpunkt aus gesehen, zu dumm oder zu gemein ist für das, was er ihr bieten will, daß er all dem gegenüber: „dennoch!“ zu sagen vermag, nur der hat den „Beruf“ zur Politik

يفتح فيبر نصّه باستعارة حشية قوية: «ثقب ألواح خشب صلبة»، تحوّل المفهوم المجرد (السياسة) إلى «حرفة»؛ إلى فعل ملموس يستطيع القارئ تخيّل وسام صوت تقريباً. الاستعارة الناجحة تجسّد المجرد وتجعله محسوساً.

لاحظ كيف يضيف «بقوة وبطء»؛ متضادان يخلقان توتراً دلاليّاً يعكس طبيعة العمل السياسي نفسه. ثم يعمّق هذا التوتر بإضافة «بشغف ورؤية»؛ ثنائية أخرى تكشف التعقيد النفسي للفعل السياسي. لذلك، اجعل من تركيبك اللغوي صورةً للفكرة نفسها. حين تكون الفكرة توتراً بين قوتين، فلتكن الجملة أيضاً مشدودة بينهما.

يبني فيبر حجته على نحو تصاعدي محكم:

يبدأ بتعريف (السياسة مثلها مثل...)

ينتقل إلى حقيقة تاريخية عامة (تجارب التاريخ كلها تشهد...)

يرتفع إلى الشرط الضروري (يقتضي أن يكون قائداً... بطلاً)

يتوسع ليشمل الجميع (حتى الذين ليسوا قادة...)

يربط بالحاضر (الآن تحديداً)

يختم بالشرط النهائي الحاسم (لا يصلح للسياسة إلا...)

هذا البناء يخلق إيقاعاً دراماتيكياً يقود القارئ من العام إلى الخاص، من الوصف إلى الشرط، من الماضي إلى الحاضر. وهو ما يذكرني بأسلوب مؤسس النثر في اللغة العربية عبد الحميد الكاتب، وإليك مثلاً من إحدى رسائله:

«السياسة مثلها مثل ثقب ألواح خشب صلبة بقوة وبطء؛ بشغف ورؤية»

هذه العبارة وحدها تلخص رؤية فيبر: السياسة ليست اندفاعاً أعمى، ولا حلماً سريع التحقق، بل عمل طويل الأمد، شاق، يتطلب من صاحبه مزيجاً نادراً من الحماسة والانضباط، من الشغف والحكمة، ومن الإصرار والبصيرة.

لكن نص فيبر لا يُقرأ بوصفه درساً في السياسة فحسب، بل بوصفه درساً في فنّ الكتابة أيضاً، وكيف يمكن للكاتب أن يشجّد أفكاره وصياغته في لحظة تاريخية مضطربة.

وقبل تقديم الترجمة، أود الإشارة إلى أنّ النص في لغته الأصلية الألمانية، يحمل جمالاً خاصاً كثيراً ما يُساء تقديره. فاللغة الألمانية ليست تلك الكتلة الثقيلة أو المتكسرة كما يتخيّل البعض، بل هي لغة ذات بنية هرمية صارمة، تُبنى جملها كأنها سلالمة فكرية متدرجة، يبدأ معناها من القاعدة ثم يعلو طبقةً طبقة حتى يبلغ الذروة في نهايتها. وهي لغة تتميز بإحكام داخلي، وبقدرة عالية على جمع الدقة المنطقية والثراء الدلالي، بحيث تبدو الجملة الألماني، عندما تُكتب جيداً، متماسكة عضوياً، كأنها قطعة واحدة لا يمكن فصل مفرداتها عن سياقها.

إن نص فيبر مثال على هذا الانسجام؛ جملة طويلة تتفتح بهدوء، وتتقدّم بترؤ، وتغلق في نهاية السطر على فكرة تتخذ شكل خاتمة لاهوتية في قوتها ونبرتها:

السياسة مثلها مثل ثقب ألواح خشب صلبة بقوة وبطء؛ بشغف ورؤية. وليس ثقة شك في أن تجارب التاريخ كلها تشهد بأن الإنسان ما كان ليبلغ المُمكن، لو لم يسع، المزة تلو الأخرى، إلى المستحيل. غير أنّ الإقدام على ذلك، يقتضي أن يكون المرء قائداً، بل وبطلاً أيضاً بالمعنى الأكثر رصانة للكلمة. حتى الذين ليسوا قادة، ولا أبطالاً، لا بُدّ لهم التحليّ برابطة الجأش التي تمكّنهم من تحمّل انهيار كل الآمال. هذا، والآن تحديداً، أمر لا غنى عنه؛ وإلا فلن يحققوا ما هو مُمكن اليوم. ولا يصلح للسياسة إلا مَنْ كان واثقاً أنّه لن ينكسر حتى إذا تبدّى له أن الدنيا أسخف أو أحقر من أن تستحق ما يريد تقديمه لها؛ وحده الذي يستطيع، إزاء كل ذلك، أن يقول: «إنّ يكن!» هو صاحب «حرفة» في السياسة.

Politik bedeutet ein starkes, langsames Bohren,, von harten Brettern mit Leidenschaft und Augenmaß zugleich. Gewiss ist es – und alle geschichtliche Erfahrung bestätigt es – dass der Mensch das Mögliche nicht erreicht hätte, wenn er

